ذكرى امرأة

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب عبد الحليم العشيري

ما أحسبني كنت أذكرها بعد ذلك النسيان الطويل ، لو لم أسمع في تلك القرية النائية من قرى مصر ، وفي تلك الأمسية الساجية من أمسيات الريف الغارق أبداً في الهدوء ، هذا الرجل الريفي وهو يغني في صوت حزين (الموال) المشهور المنتشر بين جل أهل الريف الذي مطلعه :

« يامم يالي بلا خال تعال اعملك خالي »

« واحط قلبي اللان على قلبك الخالي »

لقد كان ذلك (الموال) وهذا الرجل يغنيه يعيد إلى ذهني ضروبا من الذكريات متباينة مختلطة ، إذ كان يرتبط بشيء نسيته منذ زمن بعيد ، بقصة امرأة عجيبة ماتت كنت أسمعها تغنيه حينما كانت تعيش ...

لم يكن الصوت القديم ، صوت تلك المرأة وهي تغني ذلك (الموال) ، قد بقي منه في أذني سوى أثره العالق ، ورغم ذلك فقد جدده صوت الرجل الريفي وهو يردد ويرجع (موالـه) . فعدت أسمعه من جديد بكل ما كان فيه ، بتيرانه الباكية الكئيبة ، وأنغامه المضطربة النائحة ، وكان كلما تجدد في أذني جدد معه ذكريات تلك الحقبة من حياتي التي عشتها وهذه المرأة تعيش وأراها وأسمع عنها .

وشمرت وهذه الذكريات تترى على مخيلتي بشعور مبهم مختلط . . شعور من يعود فجأة وبلا إنذار إلى ماضيه ، ليحيا في بعض أيامه مرة ثانية ، وينزل تراب النسيان عما سلف من حوادثه .

كانت تلك المرأة يوم عرفتها في الأربعين من عمرها ، وإن كانت تبدو في الخمسين ، ذات جسد متهدم ، ووجه ذابل تظهر في أضاعيفه آثار جمال تولى ، وكان أعجب ما فيها بسمة وهبتها لها الطبيعة ، بسمة ذاهلة حائرة لم تكن تختفي عن شفتيها إلا قليلاً ، وعيون ضيقة ذاوية تفصح أعماقها عن الداء الرهيب الذي ورثته هذه المرأة عن أسرتها ، وداء الجنون والعته ! .

ولم يكن لها زوج ، كلا بل كان لها هذا الزوج وتوفي بعد أعوام قليلة من معاشرته لها ، ولكن كانت لها ابنة ، ابنة في سن العشرين أو تزيد حلت ضيفة على المارستان منذ بلغت سن الثانية عشرة .

وكان أكبر ما أدهشني مما عرفته عن هذه المرأة ، أنها تشرب الخمر ، وتضع منزلها كل مدة ما تحت تصرف رجل تجتذبه إليها بمالها ليعاشرها فيه معاشرة الزوج لزوجته دون أن تربطهما رابطة زواج شرعي . حتى إذا شبعت من معاشرته نبذته ليأتي دور رجل غيره ...

وكأنما خلق الله هذه المرأة مجموعة من المتناقضات والعجائب ، وكأنما وضع فيها أشنع صفات مخلوقاته ، وأقذر غرائز المرأة وأخلاقها ، وأشذ طباعها .

وكنت في تلك الأثناء التي عرفتها فيها أسمع

عن طيشها وتصرفاتها وأعمالها قصصاً غريبة . وأرى من هذا الطيش وهذه التصرفات والأعمال أيضاً الشيء الكثير الغريب ...

قيل لى ذات يوم إنها شربت زجاجة خمر من زجاجات الخمر الرخيصة التى يبيعها « ويترى » فى دكانه الصغير بالقرية التى كنت أعيش بها وتعيش بها ، فلما ذهبت الخمر بوعيها انطلقت فى دروب القرية وطرقاتها سكرى تفوح من فمها رائحة الخمر ، وراحت تصيح بصوت ثمل وهى تضحك ضحكات فارغة عالية مدوية :

— هكذا يجب أن تكون الحياة: خمر وطرب..

ثم ذهبت تسب من كانوا فى طريقها من الناس، فاجتمع حولها الصبية وطفقوا يقذفونها بالطوب ، ويغمرونها بالتراب ، حتى لم تعد تحتمل عبثهم فسقطت على الأرض تصيح بكلام غير مفهوم ، ولم يرحمها الصبية عند هذا الحد بل ازداد تنكيلهم بها ، حتى خمدت حركتها واستكانت فى رقدتها على الأرض تنظر إليهم بعين ابتدأت تبكى وتفهم وتتألم ...

ولم تستطع العود إلى بيتها فى ذلك اليوم إلا بمساعدة بعض الناس ...

ورأيت أنا بعينى مناظر كثيرة لهذه المرأة وهى تهان على هذه الصورة عقب شربها للخمر وتسلط شيطان الخمر على عقلها .

وكأنما لم يكفها ما أصابها من جنون وراثى ، فأصيبت أيضاً بجنون الخمر وهو شر جنون .

ولا أعرف لم لم تنقل هذه المسكينة إلى المارستان ولعل السبب فى ذلك هو بعدها عن عيون من فى استطاعتهم نقلها إليه ، وعدم وصول أخبارها إلى أولى الشأن فى هذا الشأن .

وقابلت هذه المرأة يوماً ، فرحت أنصحها بترك الخمر وهجر الطيش ، فنظرت إلى بعينين نفذت نظرتهما إلى أعماقى وقالت ساخرة :

— عشنا لنرى أولادنا ينصحوننا ، يا صغيرى العزيز احتفظ لنفسك بهذه النصائح الغالية . وظلت على طيشها وجنونها بل تمادت فيهما .

وفى ذات مساء شهدتها وهى تتخلص من رجل كان يعاشرها وتعاشره قبلته ، كانت تقول له وهو جالس القرفصاء فى ركن من أركان إحدى غرف منزلها الصغير ، وعلى وجهه دلائل الخوف ، وفى عينيه وميض الشقاء المقبل الذى سيعود إليه بعد أن استمتع بحلاوة الحياة ونعيمها وراحتها بجوار هذه المرأة .

— فى صباح الغد يجب أن تجمع ثيابك يا طفلى الغر ، وتذهب إلى حياتك التى انتزعتك منها مدة ما فلن أستطيع أن آويك أكثر من ذلك ...

فتلقى كلماتها ساكناً وهو ينظر إليها نظرة المحروم ، أو المطرود من دار حلوة ليس له حق المعارضة فى طرده منها

وعادت المرأة تقول وقد شاعت فى وجهها فرحة:

— وسوف آتى فى القريب برجل آخر من نوع آخر أبوئه مكانك ...

وظهر على الرجل أنه يكاد يبكى ، ولكنه تماسك واستطاع أن يبدد ما ظهر عليه ..

وهكذا تخلصت من رجل بعد رجل ممن تتخذهم أزواجاً أو بالمعنى الصحيح أشباه أزواج ..

وبعد أيام قيل لى إنها اتخذت زوجاً جديداً ، وقد رأيته ... وكان فتى ما يزال أخضر الشارب ،

عديد القامة فى امتلاء ، على كثير من الوسامة وإن كانت تقاطيع وجهه تنبئ بنفس شريرة أثيمة

وتنبئت أخبار حياتها مع هذا الفتى مدة ما ، ثم شغلتنى شواغل الحياة عن ذلك بضعة أشهر قيل لى بعدها إنها تركته وإنها تبحث لها عن رجل آخر جديد ، ويشاء الله أن وقعها فى الحب فتنسى البحث عن هذا الرجل ...

ولم أصدق فى أول الأمر أنها وقعت فى شراك الحب ، ولكن الدلائل على ذلك كانت كثيرة فصدقت. ولقد يكون غريباً أن تحب امرأة كتلك، والواقع أنى لا أزال أعجب من هذا إلى الآن ...

ومَن أحبت ؟.. أحبت ضابط (نقطة) القرية الذى طالما أتى بها فى سجن « المركز » والذى طالما أمر عسكره بجلدها لانطلاقها فى الطرقات سكرى. لكأنما لم تدع هذه المرأة شيئاً غريباً شاذاً دون أن تأخذ منه بقسط

وبدأت أهتم بالمرأة وبأخبار حبها ، وكثيراً ما كان يرتسم فى مخيلتى قلب امرأة فى الأربعين من عمرها وقد عادت تجرى فيه دماء الحياة والشباب والحب بعد أن شاخ وهرم ، فأقول لنفسى إن الله قادر على كل شىء يحيى العظام وهى رميم

وانقضت على هذا الحب تسعة أسابيع، وزرت ضابط « نقطة » القرية، وكانت لى به معرفة ازدادت أخيراً ، ورأيت أن أتحدث معه فى أمر تلك المرأة العجيبة التى تحبه ، فقلت له :

— هل أتاك نبأ تلك المرأة التى تحبك ؟

ففهم على الفور أى امرأة أعنى، وتبسم وهو يقول:

— طبعاً . ولكنى أعجب كيف أحبتنى هذه المرأة المجنونة ...

قلت : أواثق أنها تحبك ؟

قال : هذا ما يبدو لى ...

قلت : وماذا ترى فى ذلك ؟

قال : لا شىء . لقد قلت لك إنها امرأة مجنونة .

ثم صمت لحظة وأردف ضاحكا :

— دعنى أحدثك عن حادث عجيب ، أو قل مضحك جرى لى معها منذ أيام ...

قلت على الفور : هات ما عندك . أسرع

فراح يحدثنى :

— كنت مضطجعاً على أريكة فى إحدى غرف منزلى لأستريح بعد أن قضيت يوماً كله عمل وكد وفجأة انفتح باب الغرفة ، ودخلت علىّ تلك المرأة تترنح ثملة ورائحة الخمر تنبعث من فمها ، وحينما رأتنى اندفعت تجرى إلىّ ، ومالت على تدنى من فى جيبتها المنضن الكريه وهى تغمغم فى صوت لاهث ثمل مثلها:

« هيا قبلنى أيها الحبيب ، على جبينى هنا ، فانى أخاف أن تأنف من تقبيلى فى فمى الذى لوثته الخمر هيا فقد تشاجرت بسبب هذه القبلة مع الشرطى الذى يقوم على خدمتك ، حينما أراد منى من القدوم إليك ، واضطررت فى آخر الأمر إلى حبسه فى « المطبخ » وإغلاق بابه عليه بالمفتاح ، هيا ولا تدعنى أنتظر فان قواى تتلاشى من التعب الذى سببه لى هذا الشرطى العنيد »

وكانت رائحة الخمر المنبعثة من فمها تضايق أنفاسى وكان جبينها بغضونه وقذارة شكله يثير فى نفسى الاشمئزاز ؛ فاستجمعت قواى ودفعتها بيدى بعيداً عنى ، دفعتها دفعة قوية أسقطتها على الأرض كما تسقط القطعة الكبيرة من الخشب ، وارتطم رأسها بالبلاط فخيل إلى أنه تحطم ، وسمعت صرخة خفيضة

انسابت من بين شفتيها كأنها عويل مخنوق ، ثم ... ثم نهضت وتركت الأريكة والمنضب يأخذ منى كل مأخذ ، فرأيتها تنظر إلى فى عتاب رحيم وتقول :

« فى سبيلك أيها الحبيب » ولم تلفظ بغير هذه الكلمات ، وخرجت فأطلقت الشرطى المسجون فى « المطبخ » وطلبت منه أن يذهب فيحملها ويلقى بها خارج المنزل . وقد كان

وصمت الضابط وهو يخرج من علبة دخانه دخينة وضمها بين شفتيه وتمتم :

— لقد قلت لك إن هذه المرأة مجنونة ...

وأشعل الدخينة وراح يدخنها فى صمت ، واستأذنته فى مبارحته ، ثم انطلقت إلى الطريق وأنا أشعر بقلبى قد امتلأ شجناً

ولم تفارق مخيلتى فى ذلك اليوم وليله ، صورة امرأة فى الأربعين سكرى ملقاة على أرض إحدى غرف منزل تنتظر فى عتاب رحيم الرجل الذى أهانها بالقائه لها هكذا على أرض الغرفة ... الرجل الذى تحبه ولا يحبها ، وتهتف قائلة له « فى سبيل حبك أيها الحبيب ! »

* * *

وكانت الأيام تمضى وأنا أرقب عن كثب تلك المرأة العجيبة واهتمامى بأمرها يتضاعف ويتضاءف فى كل يوم وفى كل ساعة ، وكنت معها ذات يوم عند ما أتاها نبأ موت ابنتها نزيلة البيمارستان ، أبداً لن أنسى ما بدا على وجهها وما لاح فى عينيها وقتذاك ، لقد لاحت فى عينيها نظرة حائرة تائهة ، وبدت على وجهها جهامة وانقباضة وتفكير ، وظلت على ذلك بضع دقائق ، ثم تندت عيناها بالدموع وهتفت فى خفوت :

— ابنتى ماتت .. أوه! لقد كدت أنسى هذه البنت المسكينة ...

وسقطت قطرة من دموعها بين شفتيها فمسحتها بأصبعها فى سهوم وشرود ، ثم تكلفت الابتسام وهى تقول :

— ولكن لادامى للحزن ... فكلنا سنموت.

وكنت مع بضعة نفر من أهل القرية التفوا حولها قد عمنا الوجوم والصمت ، فنظرت إلينا وهى تضحك فى اضطراب وأردفت قائلة :

— لماذا صمتكم ووجومكم هذا ؟ ! هيا عودوا إلى حالتكم التى كنتم عليها قبل الآن « فرفشو » . ابتسموا ، أيؤلمكم منظر أم ماتت ابنتها ؟! ...

وطفقت تضحك ضحكات كأنها العويل والنواح فلما وجدتنا لم نتغير من حالنا انقطعت عن الضحك فجأة ونظرت إلينا فى دهش ، ثم فى ابتئاس ، ثم فى ... ثم نظرت إلينا نظرة لم أفهم لها معنى ، وتركتنا فى خطوة متعثرة دافنة وجهها بين راحتيها تنتحب ... !

محال أن تزيل يد النسيان من ذهنى هذه اللحظات ومحال أن تسلبنى منظر تلك المرأة فيها[1] محال

ومن ذلك اليوم ابتدأت أسمع تلك المرأة وهى تغنى ذلك الموال الذى يقول مطلعه :

« يا عم يا للى بلا خال تعال اعملك خالى »

« واحط قلبى الملان على قلبك الخالى »

وكانت تشرب الخمر حتى تمايل سكراً ، وتنطلق فى طرقات القرية تغنيه بصوت مضطرب يغص بالحزن والبكاء ، وكان الصبية يتطلقون خلفها فى كثير من الأحيان يرمونها بالطوب ، ويحتفنون

(١) أعنى منظرها فى تلك اللحظات

التراب يلفونه عليها ، وكثيراً ما أنقذها الناس ولهوم يكاد يقضى عليها ...

مسكينة ... لقد كانت تعيش بقلب جريح ، وعقل مجنون ... كانت فريسة لحب يائس وجنون أليم ، وحزن تملكها بعد موت ابنتها . وعبثاً حاولت أن تجد ذلك الرجل الذى لا « خال » له لتضع على قلبه « الخالى » قلبها المملوء بالآلام والأشجان !

* * *

وانتابت البائسة فى يوم من الأيام حمى شديدة ثارت على فراشها تعانى آلام هذه الحمى فوق ما تعانيه من آلام قلبها وعقلها ، والتفتت حولها تبحث عمن يقوم على خدمتها فى محنتها الأخيرة هذه فلم تجد أحداً سواى ، كان كل الناس قد هربوا منها إلا إياى ، فلقد كنت أعطف عليها وأرثى لها فلم أشأ أن أتركها تقاسى ألم المرض وحدها ؛ ونظرت إلى وهى تقول :

— ولكنى أسأت إليك من قبل يا سيدى

فقلت : ما فات مات ...

وكانت لى صلة بطبيب يقيم فى « المركز » الذى تتبعه قريتنا فاستقدمته ليشرف على علاجها ، وأثر فى المرأة هذا العطف والاهتمام ، فراحت تدعو لى بالسعادة وراحة البال وطول العمر

وقد خف جنونها فى أيام هذا المرض ، ولكنها فى أحيان كثيرة كانت تحن إلى الخمر فلا أستطيع منعها من شربها ، وفى ذات مرة أخذتها سنة من النوم وأنا بجوارها ، فسمعتها تهتف باسم ضابط « نقطة » القرية ، وأثر فىّ ذلك فاستعبرت وأنا أرنو إلى وجهها الشاحب وأهز رأسى فى أسى وإشفاق

ولما استيقظت نظرت حولها فى دهشة وتبسمت فى كآبة وهى تتمتم :

— لقد خيل إلى فى نوى أنه أتى ليودنى ... ألا ما أقساه من حبيب ...

وتلألأت فى عينها دمعة ...

وبعد لحظة التفتت إلى تسألنى :

— هل قابلت ضابط « النقطة » منذ قريب ؟

قلت : أجل ...

فسألتنى فى إسراع وهى تكاد تذوب شوقاً ولهفة:

— وكيف حاله ؟

قلت : كما هو ...

فأغمضت عينيها وظهر عليها أنها تستعيد شيئاً حلواً ، ثم عادت ففتحتهما والتفتت إلى قائلة :

— هل رأيت فى هذه الدنيا امرأة أشقى منى ؟

فنظرت إليها طويلاً ... ولكنى لم أجبها ...

وتصرمت أيام . وفوجئت بخبر يقول إن ضابط « نقطة » قريتنا سينقل بعد يوم إلى « نقطة » أخرى فى بلد بعيد ، وكانت صحة مريضتى قد ساءت وتدهورت فحاولت بكل ما وسعنى أن أمنع هذا الخبر من الوصول إلى أذنها حتى لا يصيبها بشر جديد ، ولكن رجلا ممن عادوها تدفعهم الشفقة أو حب الاستطلاع أوصله إليها دون أن أعلم ، فلما اختليت بى بعد ذلك وكنا فى الصباح قالت لى وصوتها يرتعش :

— سوف أذهب فى المساء لأودع ضابط « النقطة » فقد علمت أنه سينقل إلى بلد آخر غير هذا البلد . فهل تستطيع مرافقتى إلى منزله ...

قلت وأنا أعجب لها فى نفسى وأخفى عجبى

— إنك الآن فى أسوأ حالات المرض ، فلا ينبغى أن تكلفى نفسك مشقة ...

— وهل تحسبنى أستطيع تركه يذهب دون أن أودعه ؟!

— سوف آتى به إلى هنا فتودعينه وأنت على فراشك ...

فعم وجهها الفرح وصاحت وهى لا تصدق ما أقوله :

— أوَ يقبل المجىء إلى هنا ؟

فطمأنتها ...وأكدت لها أنى سأحمله على الحضور إليها ، وذهبت فرجوت الضابط أن يأتى معى إليها ، وقد رق لها قلبه بعد أن وصفت له حالها ، فأجاب رجائي ورافقنى إليها

وحينما دخل عليها كادت المسكينة تموت من الفرح ، واغرورقت عيناها بالدموع وهى تنظر إليه غير مصدقة أنه هو حقاً ...

ورق لها قلب الضابط أكثر ، فانحنى عليها يضع على جبينها قبلة ... القبلة التى أهانها من قبل حينما طلبتها منه ، وأمسكت المرأة بيده تضغط على أناملها فى عصبية وهى تصيح

— أنت ... أنت ...

وبعد حديث ووداع دام بضع دقائق غادرها الضابط ، وقد بدت على شفتيها وهى تشيعه إلى الباب يبصرها الكليل بسمة فيها حزن ووداع وبكاء

والتفتت إلى تقول بعد أن ذهب :

— إنى لا أصدق. يخيل إلى أننى كنت فى حلم ...

وفى اليوم التالى سافر ضابط «النقطة» إلى البلد البعيد الذى نقل إليه ، وبعد أيام من سفره ماتت المرأة المريضة الكسيرة المجنونة التى أحبته فلم تسعد بحبها إلا مرة واحدة ، فودعت بموتها امرأة عجيبة ، مرت بحياتى كما يمر بخيال النائم حلم عجيب !

عبد الحليم محمود العشيرى

بنك مصر

أكبر مؤسسة مالية مصرية

تنشىء الصناعات الكبرى

وتؤسس الاستقلال الاقتصادى

عاملوه ... وعاملوا شركاته تكتبوا ... النصر لبنوكم